(كتابة الاختلاف في أدب الرحلة) للدكتور حافظ قاسم صالح القطيبي

شهدت المكتبة اليمنية والعربية عام 2022 صدور كتاب قيم عن الاختلاف في أدب الرحلات بعنوان (كتابة الاختلاف في أدب الرحلات) عنواناً أساسياً، متبوعاً بعنوان فرعي (من القرن الثالث الهجري حتى نهاية القرن الثامن الهجري) للدكتور حافظ قاسم صالح القطيبي.

كمال محمود علي اليماني

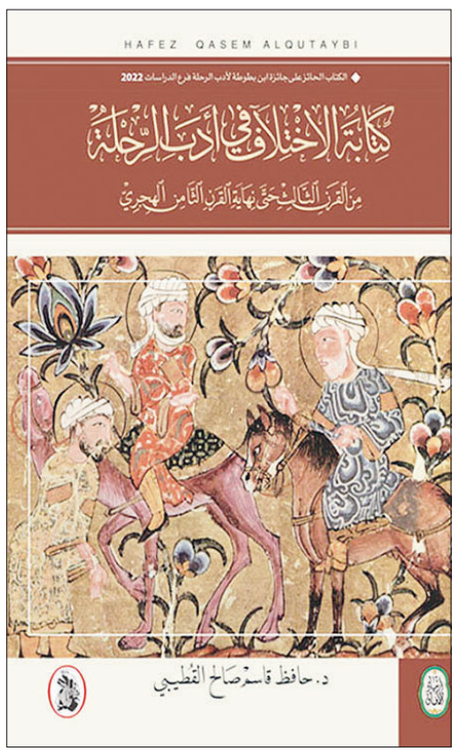

((وهو في الأصل بحث تقدم به الباحث لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / كلية اللغة العربية/ قسم الأدب في المملكة العربية السعودية، حيث كان مبتعثاً هنالك من قبل جامعة عدن لاستكمال الدكتوراه)).

وهو الكتاب الذي نُشر إثر فوزه بجائزة (ابن بطوطة لأدب الرحلة) فرع الدراسات للعام 2022، والتي أسسها المركز العربي للأدب الجغرافي « ارتياد الأفق»، ونشر عن: المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ودار السويدي في أبوظبي.

وقد جاء الكتاب في نحو 480 صفحة من المقاس الكبير . حوى الكتاب استهلالاً للأستاذ محمد أحمد السويدي، ثم مقدمة للمؤلف ذاته، أعقبها تمهيد في نحو 20 صفحة قبل الولوج في المتن البحثي.

وبحسب الكاتب فإن «مقولة الاختلاف- التي تشكل محورا رئيسا لهذا البحث- من المفاهيم الأكثر استعمالاً في مجالات الدراسات المهتمة بالأبعاد الثقافية في الأدب العربي - إلى جانب مقولات: الآخر، والهوية، والذات. ومفهوم الاختلاف مصطلحٌ علميّ شائع في الخطاب المتداول اليوم في المجال النقدي، سواءٌ في الخطاب السياسي أو الإعلامي أو في الكتابة الأدبية والفكرية، وهو متصل اتصالاً وثيقاً بحقولَ بحثية عديدة، منها حقول الدراسات الإنسانية والثقافية، ويأتي على رأسها الأدب الذي يعدّ من أكثر مجالات الثقافة انشغالاً بهذه المسألة نظراً إلى الجسور المتعددة بينه وبين سائر أشكال التعبير».

فما هو أدب الرحلات قبل الحديث عن الكتاب؟

أدب الرحلات هو الكتابات والتدوينات التي كتبها ودوّنها الرحالة الذين جابوا البلدان وانتقلوا من مواطنهم إلى مواطن أخرى راصدين المختلف في تلك البلدان والمواطن في صنوف شتى من صنوف الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ثم عادوا إلى بلدانهم ليروا لأبناء جلدتهم ماعايشوه، وماشاهدوه، وماحكي لهم من الحقائق، ومن الغرائب والعجائب.

ويرى الباحث حافظ القطيبي، أن «الكتابة الرحلية فتحت مجالات جديدة في الكتابة النثرية غير تلك المجالات الفنية الضيقة القائمة على جمال العبارة والأسلوب .. فمنحت مفهوم الأدب فضلا عن الإمتاع والإفادة دلالات أوسع وأثرى شملت الفضاءات الإنسانية ومجالات التواصل والتعارف بين الشعوب والأمم».

والحق أن أدب الرحلات لم يدوّن في ثقافتنا العربية إلا مع حلول القرن الثالث الهجري(التاسع الميلادي)، ولقد كان هذا النمط من الكتابة جديداً غير مسبوق في الثقافة العربية؛ ولذا فقد التبس بالمنوال السردي خاصة والحكائي عامة – كما جاء في مقدمة الكتاب- الذي نتناول عرضه، ولقد عرض الباحث في كتابه مشاهدات ومرويات وأحكام عدد من الرحالة العرب الذين كتبوا عن رحلاتهم في كتب أو تدوينات أو رسائل ما بين القرنين الثالث وأواخر القرن الثامن الهجري، وهما القرنان اللذان شهدا رحلات قام بها أولئك الرحالة العرب المسلمون من الأقطار العربية إلى بلدان متعددة امتدت شرقاً إلى بلاد الهند والصين وغيرها من بلدان الشرق الأسيوي، وغرباً إلى بلاد الترك والروس والصقالبة وبلاد البلغار، ورحلات إلى بلدان الساحل الأفريقي أيضا.

يقول الباحث: «لقد شكلت الرحلة العربية القديمة، بوصفها سفراً ورحلة إلى الآخر المختلف أرضية خصبة لكتابة الاختلاف؛ ذلك أن فعل الرحلة في النشاط البشري عامة مغامرة في المكان الحقيقي، وهو كذلك مغامرة في الكتابة بصفتها فضاء يدون تجربة إدراك الفضاء الآخر المختلف، والتعبير عنه بالوسائل اللغوية والبلاغية الدالة على الانفعالات وردود الأفعال إزاء ذلك المختلف» ومن هذا المنطلق عنت للباحث فكرة دراسة: كتابة الاختلاف في أدب الرحلة..

لقد اتجه البحث إلى تحليل كيفية توظيف اللغة في الكتابة عن العالم المختلف، الثقافي والطبيعي، كاشفا عن دوافع هذه الكتابة وآلياتها ومجالاتها وأغراضها ووظائفها، موظفا مناهج حديثة في التحليل.

وقد درس الباحث سبع مدونات رحلية، وهي:

*سليمان التاجر ألفه في 237هـ (عجائب الدنيا وقياس البلدان)، إلى الصين .

*أبو دلف المهلهل ت 390 هـ في رسالتيه الأولى والثانية إلى الصين وإلى وسط آسيا وأرمينيا.

* أحمد بن فضلان قام برحلته في 309هـ (رسالة ابن فضلان)، إلى بلاد الترك والروس والصقالبة.

* أبو حامد الغرناطي ت 564هـ (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب). إلى مصر وصقلية وإيران، وعبر بحر قزوين وبلغار الفولجا، والهنغار والقوقاز.

*محمد بن جبير الأندلسي ت 611هـ (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار).إلى مكة والشام ومصر وصقلية.

*ابن بطوطة ت 779هـ (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) إلى جزر المالديف والهند والصين وبلاد فارس وأفريقيا وعدد كبير من البلدان العربية والإسلامية.

فلنتجه نحن أيضا في رحلة ممتعة نسبر فيها أغوار هذا الكتاب الشائق لنتعرف على أهم ما حواه في ثناياه.

قسّم المؤلف بحثه إلى أربعة فصول وخاتمة، ثم عمد إلى تقسيم الفصول إلى مباحث، ولقد تناول في الفصل الأول المتعلق بدوافع كتابة وتدوين الرحلات في مباحثه الأربعة ؛ الدوافع السياسية والاجتماعية والمنطلقات الدينية والبواعث الثقافية والمحركات الاقتصادية، وهي الدوافع والمنطلقات والبواعث التي من أجلها اتجه الرحالة العرب إلى تدوين رحلاتهم.

إذ إن تلك الرحلات العربية إلى المواطن المختلفة لم تكن رحلات ترفيهية غير ذات مقصد وغاية، وإن البحث عن المتعة هو محركها وباعث لها، بل تعددت بواعثها ودوافعها، وقد تجلت دوافعها الثقافية مثلاً « في تناول أولئك الرحالة للطعام واللباس ونمط البناء والصناعات والتقنيات والفنون والكتاب والمعرفة»، وهي مؤشرات للتحضر والبدائية في هذا الموطن أو ذاك، واتضحت المحركات الاقتصادية من خلال « كتابات الرحالة في تفاضل الأقاليم والبلدان وتمايزها في الثروات الطبيعية والخصائص الاقتصادية والموقع الجغرافي وأماكن الجذب والازدهار الاقتصادي والتجاري، والخصائص الطبيعية من ماء وتربة ومنتوجات وخاصة الزراعية». أما الدوافع السياسية للرحالة فقد تمثلت في المقارنة بين أنظمة الحكم بين بلدان الآخر المختلف دينيا، وعمد الرحالة إلى بيان تفوق الذات ونظمها السياسية، غير أنهم لم يغفلوا الحديث عن بعض النماذج الرشيدة والحكيمة لدى الآخر وتوجيه نقد غير مباشر، وربما التعريض بأنظمة الحكم في البلاد الإسلامية، ويتلخص الدافع الاجتماعي للكتابة في « معظم الظواهر الاجتماعية التي سجلها الرحالة ذات طابع سلبي من وجهة نظر الرحالة وثقافته، لأن الرحالة انطلق من مرجعيته الإسلامية في الحكم عليها»، وهو هنا يتحدث عن مشاهدات وملاحظات الرحالة المتعلقة بالنواحي الاجتماعية من عادات وتقاليد في شؤون الضيافة والزواج والجنائز وما شابهها من أمور اجتماعية تختلف مابين مجتمع وآخر.

ويرى الباحث د. حافظ قاسم القطيبي أن منطلق التصور الديني والثقافة الفقهية للرحالة دفعته إلى النظر نظرة دونية وتنقيصية للآخر المختلف دينيا بحيث يبدو الرحالة حريصا على الاعتزاز بدينه وإبراز تفوقه العقدي.

وينتقل بنا في الفصل الثاني إلى آليات الكتابة لدى الرحالة وصيغها، وحوى هذا الفصل ثلاثة مباحث تناولت بالتفصيل آليات الخطاب من سرد ووصف وحوار، وخصص المبحث الثاني للحديث عن المعاجم التي حوتها كتب الرحلات، والتي تولدت من خلال الرحلات التي قاموا بها، وهي معاجم ضمت عددا من الكلمات والألفاظ الجديدة، ولقد تنوعت من حيث ألفاظها ، فمن معجم الحيوان والنباتات، إلى معجم الألفاظ الحضارية والثقافية كألفاظ الأطعمة والأشربة واللباس، وكذا معجم الألفاظ السياسية والدينية. وتحدث الباحث في المبحث الثالث عن الأعمال اللغوية التي أنجزها الرحالة في كتاباتهم وقد جاءت لتحقق أغراضا متعددة كتحفيز القارئ وإثارة ردود الأفعال، والاستمالة والإثارة.. وذلك لغايات تأثيرية تخص ردود فعل القارئ كالقبول أو الرفض أو الإقناع أو التنفير...

وينتقل المبحث الرابع للحديث عن المروي له، أي المتلقي لهذه الكتب والتدوينات والرسائل أيا كان، وأثره في كتابة الاختلاف ومايقع عليه هو من أثر.

أما الفصل الثالث فقد تناول مجالات الكتابة والتدوين، وجاء في مباحث أربعة، تناول المبحث الأول مجالات العالم الطبيعي من مناخ وظواهر فلكية ونبات وحيوان، وتحدث في المبحث الثاني عن الإنسان وملامحه الخلقية، وكانت العادات والأعراف والطبائع هي مادرسه الباحث، ثم عرّج على المعمار المختلف والمعالم الحضارية من وجهة نظر الرحالة في المبحث الرابع من حيث نوع البناء والكنائس والمعابد والمساجد والقصور.

وكان الفصل الرابع المتعلق بوظائف الكتابة وهو الفصل الأخير في هذا البحث الثري، ولقد تناول فيه الوظيفة الإخبارية والمعرفية والإقناعية ؛ إذ سعى الرحالة من خلال كتبهم وتدويناتهم إلى إخبار المروي له أياً كان عما عايشوه وشاهدوه بأم أعينهم، وما روي لهم مما سمعوه ولم يشاهدوه، وذلك بغرض الإخبار، وهو الأمر الذي سعوا من خلاله إلى نقل بعض المعارف عن المجتمعات والبلدان التي زاروها رغبة في التلاقح الثقافي والإفادة من تجارب الآخر، كما حاولوا إقناع المروي له بصحة ما رأوه وإن بدا غريباً وعجيباً في بعض الملاحظات والمشاهدات، وإن كان كل هذا قد جاء مسربلاً بقدر كبير من الإمتاع بما يحقق الوظيفة الإمتاعية أيضا.

جاءت الخاتمة وهي التي لخص فيها الباحث د. حافظ قاسم القطيبي كتابه في صفحات قلائل وذكر فيها أهم الاستنتاجات التي توصل إليها من خلال بحثه (الاختلاف في أدب الرحلات العربية)، ولقد جاءت الخاتمة بعد رحلة مع الكتاب كانت شائقة وممتعة، وحملت في ثناياها الكثير من المعرفة عن أدب قلما التفت إليه كثير من الناس؛ فدللت على أهمية هذا الجنس الأدبي في التواصل بين الشعوب والتلاقح الحضاري والتقارب الثقافي، لقد توصل البحث إلى نتيجة عامة وهي «أن الرحالة في كتابتهم للاختلاف وظفوا آليات لغوية واستراتيجيات خطابية كثيرة توظيفا هادفا لتحقيق أغراض ومقاصد متنوعة..»

«إن دراسة كتابة الاختلاف مكنتنا من فهم كيفية نظرة الكاتب العربي إلى الاختلاف، وبينت طبيعة علاقة الإنسان العربي مع الآخر المختلف، إذ تنوعت المواقف والعلاقات، وقد كانت المنظومة الفكرية العربية حذرة من الاختلاف الثقافي، وكانت بوادر التأسيس لثقافة الاختلاف بسيطة ومحدودة.. ».

ولعلنا في هذه العجالة نلفت الانتباه إلى هذا الجنس الأدبي ودراسته من قبل طلابنا وباحثينا في الكليات الأدبية اليمنية والعربية، بل ودعوة السفارات اليمنية والعربية المتناثرة في عموم العالم لبعثه والاستفادة منه في تعزيز عرى الأخوة والصداقة بين الشعوب العربية والإسلامية والعالمية.

نص

حروف

محمد نجيب الظَّرَاسِي

أَعْطِنِي حَرْفًا
أُهْدِيكَ كَلِمَةً
امْنَحْنِي كَلِمَةً
أَصِيغُ جُمْلَةً مُفِيدَةً
أَكْرِمْنِي مِنْكَ بِجُمْلَةٍ
أَكْتُبْ لَكَ بِلُغَةِ الْبَوْحِ
قَصِيدَةً.

بِأَيِّ تَوَجُّهٍ تُرِيدُ أَنْتَ؟
أَهِيَ رُومَانْسِيَّةٌ،
أَمْ فِكْرِيَّةٌ،
رُبَّمَا تَحْفِيزِيَّةٌ،
بَلْ حَتَّى بِإِمْكَانِي
الْغَوْصَ
لَكَ فِيهَا عَمِيقًا عَمِيقًا
فِي أَعْمَاقِ الْعَقِيدَةِ.
أَعْطِنِي حَرْفًا
أُهْدِيكَ كَلِمَةً
امْنَحْنِي كَلِمَةً
اصِيغُ جُمْلَةً مُفِيدَةً
أَكْرِمْنِي مِنْكَ بِجُمْلَةٍ
أَكْتُبْ لَكَ بِلُغَةِ الْبَوْحِ
قَصِيدَةً.
مَاذَا تُرِيدُ فِي الْأَدَبِ؟
هَلْ تَمْتَلِكُ مِنَ الْأَفْكَارِ
كَيْ أَكْتُبَهَا حِبْرًا؟
إِذَا لَا تَقْلَقْ
لِي فِي الْجَوْفِ
صَرَاعٌ مَخْمَلِيٌّ يَشْتَعِلُ صَمْتُهُ
وَيُرِيدُ أَنْ يَتَفَجَّرَ
بِكُلِّ بَلَاغَةٍ أَدَبِيَّةٍ
لَيُعْلِنَ بُزُوغَ
ثَوْرَتِهِ الْوَلِيدَةِ.

أَعْطِنِي حَرْفًا
أُهْدِيكَ كَلِمَةً
امْنَحْنِي كَلِمَةً
أَصِيغُ جُمْلَةً مُفِيدَةً
أَكْرِمْنِي مِنْكَ بِجُمْلَةٍ
أَكْتُبْ لَكَ بِلُغَةِ الْبَوْحِ
قَصِيدَةً.

فعاليات ثقافية في «جدة التاريخية»

جدة / متابعات

نظم برنامج جدة التاريخية، التابع لوزارة الثقافة، فعاليات ثقافية مصاحبة لمبادرة «بلد الفن» في منطقة جدة التاريخية؛ تهدف إلى تعزيز الوعي المجتمعي بأهمية حماية التراث والمحافظة عليه.

وشهدت الفعاليات، التي تزامنت مع اليوم العالمي للتراث واستمرت على مدى يومين، سلسلة من المحاضرات والجلسات الحوارية التي تناولت موضوعات متعددة، شملت العمارة، وعلم الاجتماع، وتاريخ الرياضة، وذلك بمشاركة نخبة من الأكاديميين والخبراء.

واستضافت برحة بيت نصيف جلسات حوارية ضمن ملتقى «المشورة الثقافي»، الذي شكّل منصّة تفاعلية؛ لتسليط الضوء على الإرث الثقافي والإنساني الذي تزخر به جدة التاريخية، وذلك في إطار جهود وزارة الثقافة لتعزيز الوعي المجتمعي بأهمية حماية التراث، والمحافظة عليه، وتحويله إلى مورد حضاري وتنموي مستدام.

وتناولت الفعاليات كذلك أبعاد العمارة التقليدية داخل الأسوار القديمة، وتطوّر الحراك الرياضي في المجتمعات المحلية، والجوانب الاجتماعية المرتبطة بالمهن الشعبية، إلى جانب تحليلات لما تثيره المباني التراثية من مشاعر، وتأثيرها في الذاكرة الجمعية، فضلًا عن مناقشة مقومات الاستثمار الثقافي في جدة التاريخية، بما ينسجم مع مستهدفات رؤية المملكة 2030.

كما خُصصت جلسة حوارية موسعة لنقاش الأبعاد الاجتماعية التي شكّلت نسيج جدة قديمًا، من عادات المجتمع وتقاليده، إلى دور العُمد والعلاقات بين سكان الأحياء، مما أسهم في إحياء ملامح الحياة اليومية في الماضي، وربط الأجيال الجديدة بجذورهم الثقافية.

يذكر أن الفعاليات تأتي امتدادًا لجهود وزارة الثقافة في إطلاق مبادرات رائدة لحماية التراث الوطني وصونه والتعريف به، من خلال مشاريع وفعاليات نوعية تُسهم في الحفاظ على الهوية الثقافية، وتعزيز قيمة المواقع التاريخية في الوجدان المجتمعي، كما تنسجم هذه الجهود مع أهداف اليوم العالمي للتراث، الذي أقرّه المجلس الدولي للمعالم والمواقع (ICOMOS) في عام 1982م، واعتمدته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) في عام 1983م؛ بهدف إبراز القيمة الإنسانية للتراث، وتعزيز التعاون الدولي والمحلي لحمايته.

تعز تحتفي بإصدار كُتيب يتحدى الصور النمطية عن المرأة في الأمثال الشعبية

تعز / خاص

احتضنت قاعة بلقيس في متنزه التعاون بمدينة تعز، فعالية ثقافية أشْهرَ خلالها كتيب «العكس صحيح» للكاتبَ عبدالسلام الهياجم، في خطوة تهدف إلى تنشيط الحركة الأدبية بمدينة تعاني آثار سنوات من الحصار والنزاع.

حضر الفعالية، التي نظمتها مؤسسة حضرموت للثقافة بالشراكة مع برنامج «مسارات اليمن 2» التابع للمجلس الثقافي البريطاني، عبدالله العليمي مدير عام مكتب الثقافة بالمحافظة، وقاسم ابراهيم مدير عام الاعلام والعلاقات بالمحافظة وعبدالكريم السامعي مدير فرع الهيئة العامة للكتاب، والدكتور احمد الهياجم مديرعام المعلومات والاحصاء بالمحافظة إضافة إلى عشرات الأدباء والشعراء والإعلاميين.

وأكد العليمي في كلمة له أن الكُتيب يُعد «إضافة نوعية للمكتبة اليمنية» من خلال نقده لصور المرأة السلبية في الأمثال الشعبية، مشيراً إلى أن مثل هذه الإصدارات «تعزز الهوية الثقافية وتدفع نحو مجتمع أكثر وعيا».

وأشاد بدور المؤسسات الثقافية المحلية والدولية في دعم الأنشطة الفكرية «كجزء من مقاومة التحديات التي تواجهها تعز».

من جانبهما، قدم الأديب والناقد احمد عبدالحق والمؤلف الهياجم شرحاً حول فكرة الكتيب الذي يحلل كيفية استخدام الأمثال الشعبية في ترسيخ مفاهيم مجتمعية مجحفة بحق المرأة، بينما ألقى الشاعر عبدالخالق الصيت قصيدة نالت استحسان الحضور، تلاها عرض موسيقي وتوقيع نسخ من الكتاب.

وتأتي هذه الفعالية في إطار سلسلة جهود لإعادة إحياء الحياة الثقافية في تعز، المدينة التي تُعتبر تاريخياً مركزاً أدبياً وفنياً، وعاصمة للثقافة اليمنية.

ويؤكد منظمو الفعاليات أن دعم المواهب الشابة وإتاحة مساحات للحوار الإبداعي يظلان «سلاحاً لمواجهة اليأس وتجديد الأمل».